بسم الله الرحمن الرحيم

٥٤ — سورة القمر

وتسمى سورة (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) وهى مكية . وآيها خمس وخمسون .

قال ابن كثير : ورد فى حديث أبى واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ (قاف) و (وَاقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) فى الأضحى والفطر. وكان يقرأ بهما فى المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد ، وبدء الخلق وإعادته ، والتوحيد ، وإثبات النبوات ، وغير ذلك من المقاصد العظيمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ)

« ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ » أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة. كما قال(١) (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقال(٢) (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) .

قال ابن جرير(٣) : وهذا من الله تعالى إنذار لعباده بدنوّ القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمرٌ لهم بالاستعداء لأهوال القيامة ، قبل هجومها عليهم ، وهم عنها فى غفلة ساهون . « وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ)

« وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ » قال ابن جرير(٣) : كان ذلك ، فيما ذكر ، على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة ، قبل هجرته إلى المدينة . وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية ، فأراهم ﷺ انشقاق القمر حجة على صدق قوله ، وحقيقة نبوته . فلما أراهم ، أعرضوا وكذبوا ، وقالوا هذا سحر مستمر ، سَحَرَنَا محمد. ثم روى ذلك عن أنس وابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من التابعين .

وقال القاضي عياض فى (الشفا) أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى ، وإعراض الكفرة عن آياته . وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه ، ثم سرد الآثار فى ذلك .

(١) [١٦ / النحل / ١] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وزعم ابن كثير أن أحاديثه متواترة ، إلا أن الشهاب نقل عن الإمام الخطابيّ أن معجزاته ﷺ ، غير القرآن ، لم تتواتر . والحكمة فيه أنها لو تواترت كانت عامة ، والمعجزة إذا عمت أهلك الله من كذّبها ، كما جرت به العادة الإلهية ، والنبيّ ﷺ بعث رحمة ، وأمّن الله أمته من عذاب الاستئصال .

ثم قال : وسبب تعرضهم للتواتر طعن بعض الملاحدة بأن القمر يشاهده كل أحد، فلو انقسم قطعتين تواتر وشاع فى جميع الناس ، ولم يخف على أحـد . والطبائع حريصة على إشاعة مالم يعهد مثله، ولا أغرب من هذا . مع أن الملازمة غير لازمة، لأنه فى الليل ، وزمان الغفلة ، ولا يلزم امتداده ، ولا أن يُرى إذ ذاك فى جميع الآفاق ، لاختلاف المطالع . انتهى.

وقد ذكر ابن قتيبة فى (تأويل مختلف الحديث) أن الذى طعن فى تلك الآثار المروية عن ابن مسعود هو النظّام ، إلا أنه لم ينقل تأويله للآية على رأيه ، ولعله هو القول الثانى الذى حكاه الزمخشريّ والبيضاويّ ، ورواه أبو السعود عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن المعنى : وسينشق القمر ، يعنى يوم القيامة إذا انكدرت النجوم وانتثرت . والمراد بالآية إما القرآن أو ما يقترحونه لو أجيبوا إلى طلبه .

ومعنى (مُّسْتَمِرٌّ) دائم مطرد ، أو محكم قويّ ، من (مررت الحبل) إذا أحكمت فتله. أو مارّ ذاهب لا يبقى ، تعليلًا لأنفسهم بالأمانىّ الفارغة . أو منفور عنه لشدة مرارته مجازاً.

وجملة (وإن يروا) مستأنفة أو حالية .

قال الشهاب : ولو كانت هذه الجملة حالية ، والمعنى . أن الساعة اقتربت ، وانشقاق القمر فيها دنا زمانه ، وظهرت آثاره ، والحال أنهم مصرون على العناد ـ كان منتظماً أتم انتظام، ولا ضير فيه سوى مخالفته للمنقول عن السلف فى تفسيرها ، فتأمل . انتهى .

أقول : ولى ههنا كلمة لا بد من التنبيه عليها ، وهى أن الرمى بالإلحاد لمنكرِ حديثٍ غير مجمع على تواتره ، جنـاية كبرى ، وزلة عظمى . فإن باب التفكير والتضليل ، ليس بالأمر

القليل . ولأجله صنف حجة الإسلام الغزالىّ كتابه (فيصل التفرقة) ودمغ بحججه أولئك المتعصبين الذين سهل عليهم الرمى لمن خالفهم بالزندقة . ولعمر الحق إن هذا ممافرّق الكلمة، ونفّر حملة العلم عن تعرف المشارب والآراء ، حتى أصبح باب التوسع فى العلم مرتجاً، ومحيطه بعد مده منحسراً ، إذ هجرت كتب الفرق الأخرى بل أحرقت ، وأهين من يتأثلها ، ورمى بالابتداع أو التزندق ، كما يمر كثير من مثل هذا بمطالع كتب التاريخ وطبقات الرجال، فلا جرم نسيت الأقوال الباقية ، وعدت من الشاذ غير المقبول . وإذا ألصق اسم الإلحاد بقائلها ، فماذا يكون حالها ؟ وهذا ، كما لا يخفاك ، حيف على قواعد العلم ، وغل للأفكار . نعم ! تفلت منهم علم الأصول ، فلم تزل الأقوال الغريبة تتراءى على صفحاته ، وإن كان ممايغمز كثير منها ، إلا أنها سارت تلج آذانهم، ويحتج بها عليهم . وقد تنبه كثير من المحققين لماذكرناه، وأشاروا له فى مواضع ، فقرروا فى كتب العقائد أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة .

وقال العلامة الفنارىّ فى (فصول البدائع): ولا يضلل جاحد الآحاد .

وقال الإمام ابن تيمية : الصواب أن من رد الخبر الصحيح، كما كانت الصحابه ترده، لاعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الرادّ أن الدليل قد دل على أن الرسول لايقول هذا، فإن هذا لايكفر ولا يفسق ، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً . فقد رد غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التى هى صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وذكر الغزالىّ فى (الإحياء) فى كتاب آداب تلاوة القرآن فى الباب الثالث فى أعمال الباطن فى التلاوة ؛ أن من أركانها التخلى عن موانع الفهم . قال : فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معانى القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . وحجب الفهم أربعة . إلى أن قال :

وثانيها ـ أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد ، وجمد عليه، وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده

عن أن يجاوزه ، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعانى التى تباين مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة ، وقال : كيف يخطر هـذا ببالك ، وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور الشيطان فيتباعد منه ، ويحترز عن مثله . ثم قال :

رابعها ـ أن يكون قرأ تفسيراً ظاهراً ، واعتقد أنه لا معنى لـكلمات القرآن إلا ماتناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار ، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . ثم قال :

وسنبين معنى التفسير بالرأى ، وأن ذلك لا يناقض قول علىّ رضى الله عنه: إلا أن يؤتى الله عبداً فهماً فى القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول ، لما اختلف الناس فيه .

ثم ذكر بعد ، عليه الرحمة ، أن النهى عن التفسير بالرأى ينزل على أحد وجهين :

أحدهما ـ أن يكون له فى الشىء رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، كالمحتج على تصحيح بدعة بتأويل يخترعه تلبيساً على خصمه ، وكالجاهل المتقحّم يتأول ما شاء هواه .

وثانيهما ـ أن يتسارع إلى التأويل بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب التنزيل . انتهى .

ويأتى مثل البحث فى كثير من المواضع التى فسرها بعض السلف بشىء ، أو روى فيها ما أنـكره غيره لما قام لديه . ولا ملام فى معترك الأفهام ـ وبالله التوفيق ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾

« وَكَذَّبُوا۟ » أى بآيات الله بعد ما أتتهم حقيقتها « وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ » أى مازين لهم من دفع الحق مما وجدوا عليه آباءهم « وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ » أى كل أمر لابد أن يصير

إلى غاية يستقر عليها . تعريض بأن أمر الرسول لابد أن يستقر إلى غايةٍ، هى الظهور والنصرة؛ وأمر مكذبيه إلى الخذلان والشقاوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)

[٥] (حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ)

« وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ » أى عن القرون الخالية ، والحقائق الكونية ، مما يستحيل أن يأتى به أىّ غيره صلوات الله عليه « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » أى مرتدع عما هم مقيمون عليه من التكذيب والغفلة واللهو « حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ » أى بلغت غايتها من الإحكام والتنزه عن الخلل ، ومن الاشتمال على البراهين القاطعة والحجج الساطعة. وهو بدل من (ما) أوخبر محذوف ، أى هو حكمة بالغة « فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ » جمع نذير . و (ما) نافية ، أو استفهامية . أى : أىّ غناء تغنى عن قوم آثروا الضلالة على الهدى ، فأعرضوا عنه ، وكذبوا به . وجوز أن تكون (حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ) جملة مستأنفة للتعجب من حالهم ، مع ما جاءهم مما يقود إلى الإيمان بادئ بدء . وهو ما يفهم من تأويل ابن كثير. وعبارته : (حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ) أى فى هدايته تعالى لمن هداه، وإضلاله لمن أضله (فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ) يعنى أى شىء تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه. فمن ذا الذى يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى[1] (وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) وكذا قوله تعالى[2] (وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) .

---

(١) [١٦ / النحل / ٩] . (٢) [١٠ / يونس / ١٠١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ)

[٧] (خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ)

[٨] (مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ، يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ)

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى اصفح عن أذاهم ، وانتظر ما يَأْتيهم من الوعيد الشديد ، كما قال : « يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ » أى داعى الله إلى موقف القيامة ، وهو ملك . أو الدعاء تمثيل للإعادة كالأمر فى قوله (كُن فَيَكُونُ) تمثيل للإبداء ، والداعى هو الله تعالى « إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ » أى فظيع تنكره النفوس ، وهو موقف الحساب والجزاء والبلاء « خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ » أى من الذل والصغار « يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ » أى قبورهم « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ » أى فى الكثرة والتموج والانتشار . والجرادُ مثل فى الكثرة « مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ » أى مسرعين . مادّى أعناقهم إليه . « يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ » أى لشدة أهواله و (يَوْمَ يَدْعُ) ظرف لـ (يَقُولُ) وقيل : بمضمر ، وقيل : بـ (يَخْرُجُونَ) والأول أظهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ » أى زجر عن الإنذار والتبليغ بشدة وقساوة ، كما يدل عليه صيغة (افتعل) .

قال الناصر : وليس قوله (فَكَذَّبُوا۟) الثانى تكراراً ، لأن الأول مطلق ، والثانى مقيد . وهو كقوله فى السورة[1] (فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ) فإن تعاطيه هو نفس عقره ، ولكن ذكره من جهة عمومه ، ثم من ناحية خصوصه إسهاباً ، وهو بمثابة ذكره مرتين . وجواب آخر هنا ،

---

(١) [٥٤ / القمر / ٢٩] .

وهو أن المكذب أولًا محذوف ، دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحاً ، ثم جاء بتكذيبهم ثانياً مضافاً إلى قوله (عَبْدَنَا) فوصف نوحاً بخصوص العبودية . وأضافه إليه إضافة تشريف . قالتكذيب المخبر عنه ثانياً ، أبشع عليهم من المذكور أولًا ، لتلك اللمحة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ)

« فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ » أى غلبنى قومى تمرداً وعتوًّا ، فلم يسمعوا منى . واستحكم اليأس منهم ، فانتقم منهم بعذاب ترسله عليهم .

ثم أشار إلى استجابته تعالى دعاءه : بالطوفان الذى هلكوا فيه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ)

[١٢] (وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)

[١٣] (وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ)

[١٤] (تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ)

[١٥] (وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

[١٦] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ)

« فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ » أى منصب . وفيه استعارة تمثيلية ، بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت لها أبواب السماء ، وشق لها أديم الخضراء . « وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا » أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر . « فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ »

أى ماء السماء وماء الأرض « عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ » أى على حال قدّره الله وقضاه، وهو هلاك قوم نوح . « وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ » يعنى السفينة . أقيمت صفاتها مقامها ، لتأديتها مؤداها . وهو من بديع الكلام ـ كما بسطه فى (الكشاف) ـ .

(ودُسُرٍ) جمع دِسار بكسر الدال ، أو دَسْر كسقف وسقف ،وهى أضلاعها ، أو حبالها التى تشد فيها ، أو مساميرها .

« تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى منا . كناية عن حفظها بحفظه تعالى وعنايته . « جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ » أى كفر به ، وهو الله تعالى ، أو نوح وما جاء به ، فهو من (الكفر) ضد الإيمان . أو هو نوح عليه السلام لأنه نعمة كفروها ، فهو متعد بنفسه ، استعير لنوح النعمة بطريق الكناية ، ونسب الكفران تخييلاً أو حقيقة . « وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ » أى قصة نوح « ءَايَةً » أى جعلناها عِبْرَة يُعتبر بها . « فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » ؟ أى معتبر ومتعظ . وأصله (مذتكر) . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ » أى عذابى لهؤلاء الكفرة، قوم نوح، وإنذاراتى بما أحللت بهم ، ليحذر أمثالهم وينتهوا عما يقترفونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ » أى سهّلناه للادّكار والاتعاظ ، لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال الكافية الشافية « فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ؟ » أى فيعتبر بما فيه ، ويثوب إلى رشده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ)

[١٩] (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ)

[٢٠] (تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ)

[٢١] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ)

[٢٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« كَذَّبَتْ عَادٌ » أى نبيّهم هوداً عليه السلام ، بمثل ما كذّبت به قوم نوح « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ* إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا » أى شديدة الهبوب، لها صرير ، أو باردة ، « فِى يَوْمِ نَحْسٍ » أى شر وشؤم عليهم « مُّسْتَمِرٍّ » أى استمر عليهم ودام حتى أهلكهم ، أو شديد المرارة لعظم بلائه . « تَنزِعُ ٱلنَّاسَ » أى تقلعهم عن أماكنهم . « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ » أى أصول نخل منقلع عن مغارسه . وأصل (مُّنقَعِرٍ) ما أخرج من القعر . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ » كرّره للتهويل وللتنبيه على فرط عتوّهم . أى فكيف كان عذابى لقومه ، وإنذارى لهم على لسانه ؟ « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » ؟ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ)

[٢٤] (فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ)

[٢٥] (أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)

[٢٦] (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ)

[٢٧] (إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ)

[٢٨] (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ)

[٢٩] (فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ)

[٣٠] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

[٣١] (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ)

[٣٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ » أى بما أنذرهم به نبيهم صالح عليه السلام . « فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ » أى جنون، أوعناء. فهواسم مفرد. وقيل: جمع سعير ، كأنهم عكسوا عليه ، فرتبوا على اتباعهم إياه مارتبه على اتباعهم له .

قال الزمخشرىّ قالوا : (أَبَشَرًا) إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم فى الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة . وقالوا (مِّنَّا) لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى . وقالوا (وَٰحِدًا) إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلًا واحداً ، أو أرادوا واحداً من أفنائهم ليس بأشرفهم وأفضلهم . ويدل عليه قولهم « أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا » يعنون : الوحى والنبوة . أى وفينا من هو أحق بها على زعمهم ، لكونه أعز مالًا ونفراً « بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ » أى متكبر ، حمله كبره على استتباعنا له . « سَيَعْلَمُونَ غَدًا » أى عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة « مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ » أى المتكبر عن الحق، البطر له « إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ » أى آية وحجة لصالح على قومه امتحاناً لهم وابتلاء « فَٱرْتَقِبْهُمْ » أى انتظرهم وتبصر ماهم صانعوه بها « وَٱصْطَبِرْ » أى على دعوتهم « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ » أى الذى يردونه لشرب مواشيهم « قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ » أى مقسوم بينهم، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم « كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ » أى يحضره صاحبه فى نوبته و (الشرب) النصيب من الماء .

ثم أشار تعالى إلى عتوهم عن أمر ربهم بقوله « فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ » فتناول الناقة بيده « فَعَقَرَ » أى فعقرها وقتلها « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ » أى كالشجر اليابس المتكسّر ، الذى يتخذه

من يعمل الحظيرة للغنم ونحوها. أو كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء. وقرئ بفتح الظاء، اسم مكان. أى كهشيم الحظيرة، أو الشجر المتخذ لها. وهو تشبيه لإهلاكهم وإفنائهم، وأنهم بادوا عن آخرهم، لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا، كما يهمد ويبيس الزرع والنبات بعد خضرة ورقه، وحسن نباته.

قال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشى من يبس الشوك.

وعن سفيان: الهشيم، إذا ضربت الحظيرة بالعصا، تهشم ذاك الورق فيسقط، والعرب تسمى كل شىء كان رطباً فيبس، هشيماً «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ».

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٣] (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ)

[٣٤] (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لوطٍ، نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ)

[٣٥] (نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا، كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ)

[٣٦] (وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ)

[٣٧] (وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ)

[٣٨] (وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ)

[٣٩] (فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ)

[٤٠] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

«كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا» أى ملكاً يرميهم بالحصباء والحجارة. أو ريحاً تحصبهم بالحجارة، أى ترميهم «إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ» أى

فى سحر . أو (الباء) للملابسة ، أو المصاحبة . وذلك أنه تعالى أوحى إليهم أن يخرجوا من آخر الليل ، فنجوا مما أصاب قومهم . ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، وقد أصابها ما أصابهم . وخرج نبىّ الله لوط عليه السلام وبنات له ، من بين أظهرهم سالمين لم يمسسهم سوء « نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا » أى إنعاماً منا ، وهو علة لـ(نجينا) « كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ » أى فأطاع ربه ، وانتهى إلى أمره ونهيه . و (الشكر) صرف العبد جميع ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله « وَلَقَدْ أَنذَرَهُم » أى لوط « بَطْشَتَنَا » أى أخذتنا بالعذاب « فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ » أى بإنذاراته ، تكذيباً له « وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ » أى طالبوه بإتيان الفاحشة معهم ، وهم الملائكة الذين وردوا عليه فى صورة شباب مُرْدٍ حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها تعلمهم بأضيافه عليه السلام ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فتلقاهم يناشدهم الله أن لا يخزوه فى ضيفه ، فأبوا عليه ، وجاءوا ليدخلوا عليه ، فأعمى الله أبصارهم ، فلم يروهم ، كما قال « فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ » أى يدوم بهم إلى النار . « فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » قال الزمخشرىّ : فإن قلت : مافائدة تكرير قوله (فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ) (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ...) الخ ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادّكاراً واتعاظاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعقع لهم الشن تارات ، لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة . وهكذا حكم التكرير كقوله[1] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) عند كل نعمة عدها فى سورة (الرحمن) . وقوله[2] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) عند كل آية أوردها فى

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٣] . (٢) [٧٧ / المرسلات / ١٥] .

سورة (والمرسلات) . وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها ، لتكون العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية فى كل أوان . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ)

[٤٢] (كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ)

« وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ » يعنى موسى وهرون ، وجمعهما للتعظيم ، أو هو جمع نذير بمعنى الإنذار « كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا » يعنى الآيات التسع ، أو الأدلة والحجج التى أتتهم ناطقة بوحدانيته تعالى . « فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ » أى عاقبناهم عقوبة شديدٍ لا يغالَب « مُّقْتَدِرٍ » أى عظيم القدرة لا يعجزه شىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ)

[٤٤] (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ)

« أَكُفَّارُكُمْ » يا معشر قريش « خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ » أى الكفار المعدودين الذين حلت النقمة حتى يأمنوا جانبها « أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ » أى براءة من عقابه تعالى ، وأمان منه ، مع أنكم على شاكلة من مضى نبؤهم « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ » أى ممتنع لا يرام . أو منتصر ممن أراد حربنا ، وتفريق كلمتنا . أو متناصر ، ينصر بعضنا بعضاً ، فالافتعال بمعنى التفاعل ، كالاختصام بمعنى التخاصم . وإفراد (مُّنتَصِرٌ) مراعاة للفظ (جَمِيعٌ) لخفة الإفراد ، ولرعاية الفاصلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ)

[٤٦] (بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ)

« سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ » يعنى جمع كفار قريش « وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ » أى يولّون أدبارهم المؤمنين بالله ، عند انهزامهم. وإفراد (الدبُر) لإرادة الجنس، أو رعاية الفواصل، ومشاكلة قرائنه . وقد وقع ذلك يوم بدر . وهو من دلائل النبوّة ، لأن الآية مكية ، ففيها إخبار عن الغيب، وهو من معجزات القرآن . « بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » قال ابن جرير[1]: ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لا يُبعثون بعد مماتهم، بل الساعة موعدهم للبعث والعقاب. « وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ » أى أعظم داهية ، وهى الأمر المنكر الذى لا يهتدى لدوائه . وأمرّ مذاقاً ، أو أشد عليهم من الهزيمة التى سيهزمونها ، إذا التقوا مع المؤمنين للقتال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ)

[٤٨] (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ)

« إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ » أى عن الحق فى الدنيا « وَسُعُرٍ » أى نيران فى الآخرة.

وقال القاشانىّ : أى فى ضلال عن طريق الحق ، لعمى قلوبهم بظلمة صفات نفوسهم . و (سُعُرٍ) أى جنون ووله ، لاحتجاب عقولهم عن نور الحق بشوائب الوهم ، وحيرتها فى الباطل .

« يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ » أى يجرّون عليها . « ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ » أى حرّها وألمها . والاستعارة فى المس تحقيقية . أو فى (سَقَرَ) مكنية، وفى (المسّ) تخييلية.

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أو المس مجاز مرسل بعلاقة السببيّة للألم . واستعارة الذوق مشهورة ، واستعمال الذوق فى المصائب بمنزلة الحقيقة . و (سَقَرَ) من أسماء جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » أى بمقدار استوفى فيه مقتضى الحكمة ، وترتب الأسباب على مسبّباتها. ومنه خلق دار العذاب، لما كسبت الأيدى، وإذاقة ألمها جزاء الزيغ عن الهدى . وهذه الآية كآية[1] (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)، وآية[2] (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ) أى قَدَّر قدرًا ، وهدى الخلائق إليه . ولا مانع أن تكون هذه الآية وما بعدها إلفاتاً لعظمته تعالى ، وكبير قدرته، وأن من كانت له تلك النعوت المثلى لجدير أن يُعبد وحده ، ويُرهب بأسه ، ويُتَّقَى بطشه ، لاسيما وقد صدع الداعى بإنذاره ، ومن أنذر فقد أعذر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

« وَمَا أَمْرُنَا » أى الذى به الإيجاد « إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » أى كلمة واحدة يكون بها كل شىء ، بمقتضى استعداده ، كلمح بالبصر فى السرعة .

قال القاشانى : (إِلَّا وَاحِدَةٌ) أى تعلّق المشيئة الأزلية الموجبة لوجود كل شىء فى زمان معيّن ، على وجه معلوم ، ثابت فى لوح القدرة ، المسمّى فى الشرع بـ (كُن) ، فيجب وجوده فى ذلك الزمان، على ذلك الوجه دفعة . انتهى .

وقيل : معنى الآية ، معنى قوله تعالى[3] (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ) .

(١) [٢٥/ الفرقان/ ٢] . (٢) [٨٧/ الأعلى/ ١ـ٣] . (٣) [١٦/ النحل/ ٧٧].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ » أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة .

قال الشهاب : أصل معنى (الأشياع) جمع شيعة ، وهم من يتقوّى بهم المرء من الأتباع. ولما كانوا فى الغالب من جنس واحد ، أريد به ما ذكر ، إما باستعماله فى لازمه ، أو بطريق الاستعارة .

« فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » أى متّعظ بذلك ينزجر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ)

« وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ » أى الكتب التى أحصتها الحفظة عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ)

« وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ » أى من الأعمال « مُّسْتَطَرٌ » أى مسطور لا يمحى ولا ينسى ، كما قال تعالى[1] (وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ، وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) وقوله سبحانه[2] (وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) .

وروى الإمام أحمد[3] عن عائشة رضى الله عنها ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول :

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٣و١٤] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبى) .

يا عائشة ! إيّاكِ ومحقّرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً .

قال ابن كثير : ورواه النسائيّ وابن ماجة من طريق سعيد بن مسلم بن ماهك المدنيّ ، وثّقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة سعيد بن مسلم هذا ، من وجه آخر . ثم قال سعيد : فحدّثت بهـذا الحديث عامر بن هشام فقال لى: ويحك ياسعيد ! لقد حدّثنى سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره ، فأتاه آتٍ فى منامه ، فقال له : يا سليمان !

لاتحقِرَنَّ من الذُّنوبِ صَغيرَا ... إنَّ الصغيرَ غَـدًا يعودُ كَبيرَا
إنَّ الصغيرَ ، وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ، ... عنـد الإله مُسَطَّرٌ تسطيرَا
فازجُرْ هواكَ عَنِ الْبِطَالَةِ ، لاتكن ... صعبَ القِيَادِ وشَمِّرَنْ تَشْمِيرَا
إنَّ المُحِبَّ إذا أَحَبَّ إلٰهَهُ ... طارَ الفؤادُ وأَلْهِمَ التفكيرَا
فاسْأَل هِدايتك الإله ، فَتَنْتَدِبْ ... فَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيرَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ)

[٥٥] (فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله بطاعته، وأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، « فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ » أى أنهار . واكتفى باسم الجنس المفرد لرعاية الفواصل . وقرئ بسكون الهاء ، وضم النون ، وقرئ بضمهما . « فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ » قال ابن جرير[1] : أى فى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم .

وقال الزمخشريّ : فى مكان مرضيّ . قال شرّاحه : فالصدق مجـاز مرسل فى لازمه ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

أو استعارة . وقيـل : المراد صدق المبشَّر به ، وهو الله ورسوله . أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسل ، فالإضافة لأدنى ملابسة .

« عِندَ مَلِيكٍ » بمعنى ملك . قال الشهاب : وليس إشباعاً ، بل هى صيغة مبالغة كالمقتدر « مُّقْتَدِرٍ » قال القاشانىّ : أى يقدر على تصريف جميع ما فى ملـكه على حكم مشيئته ، وتسخيره على مقتضى إرادته لا يمتنع عليه شىء .

وقال الشهاب : فى تنـكير الاسمين الـكريمين إشارة إلى أن ملـكه وقدرته لا تدرى الأفهام كنههما ، وأن قربهم منـه بمنزلة من السعادة والـكرامة ، بحيث لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، مما يجل عن البيان ، وتـكلّ دُونه الأذهان .